الطّفيّات في شعر السّيّد صادق الفحّام (ت١٢٠٥هـ ـ ١٧٩٠م)
ـدراسَةٌ تحليليةـ
(بحث مستل)

أ.د. خضير عباس درويش
عبد الستار جبار عطية

Taff verses in Mr.Sadiq Al-Fahaam poetry "Analytical Study"

prof . Dr. Khudhayer Abbas Darwish
Abd al-satar jabar atiah

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة تحليلية لقصائد رثاء الإمام الحسين(ع) في شعر السّيّد صادق الفحّام(ت ١٢٠٥ هـ-١٧٩٠ م)،فهو أحد أهم شعراء عصره،ومن البارزين في تنشيط الحركة الأدبيّة في النّجف الأشرف،ومن مؤسسي معركة الخميس الأدبيّة وقطب من أقطابها المهمّة،له شعر غزير توجّه به اتّجاهات مختلفة ،ومن شعره ضمن الاتّجاه الدّيني قصائد في رثاء الإمام الحسين(ع)،فله في ذلك ثلاث قصائد وهي من مطوّلاته الشّعريّة ،فقد بلغ عدد أبيات تلك القصائد مائتين وواحدا وأربعين بيتا ،وقد حاولنا في تلك الدّراسة التّطرق لأهم المحاور الموضوعيّة والعناصر الفنّيّة في تلك النّصوص الشّعريّة .

Abstract

((taff verses in Mr.Sadiq Al-Fahaam poetry "Analytical Study"))

Mr.Sadiq Al-Fahaam is one of the most important poets of his age,one of the first class poets, played a significant role in activating the literary movement of his age in general and poetical one in particular.for he is the expounder of the Thursday literary battle.he has poetical competitons and correspondences wgich were very famous and widely spread in the books of literature and translations.he had prolific poetry. In one part of his poetry,he wrote about the prophet's household .in the other part, he wrote about scientists,men of letter and grandeur people.

Taff verses are the poems or poetry that elegizes Al-Hussein bin Ali(pbuh),his companious and his household and described the ordeal encountered by his family after his death in the excruciating taff battle in kerbala ever since.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين أبي القاسم المصطفى محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين

وبعد...

لما كانت واقعة الطف تشكل حالة خاصة وانعطافة تاريخية غيّرت مسار التاريخ وأوقدت جذوة في نفوس الأحرار في كل العالم ؛لذا كان لها أهمية خاصّة في النتاج الإبداعي ومنه الشعري ،فقد كانت الحركة الشعرية التي تناولت تلك الواقعة تشكّل الخط الموازي للأغراض الشعرية الأخرى على مسار التطور الأدبي والشعري ،وقد أولاها الشعراء وخاصة الشيعة بالغ الإهتمام؛ كونها تمثل ضمير الإنسانية النابض ،وتنوعت أساليب الشعراء في تناولهم لتلك الواقعة ،وقد صاحب هذا الاهتمام من لدن الشعراء اهتمام النقاد في تشريحهم لتلك النصوص الشعرية وقد حرّك هذا الاهتمام الأقلام النقدية ؛لما ينماز به هذا النتاج-الذي تناول واقعة الطف- من صدق العاطفة وتلهب المشاعر التي تأتي على تلك الواقعة وكأنّها قد حصلت الآن،ومن بين الأقلام التي تناولت تلك الواقعة على المستوى الشعري قلم للأستاذ الدكتور علي كاظم المصلاوي وكانت النتيجة أن اجترح مصطلح الطفيات لتلك القصائد التي تناولت واقعة الطف وقد اقتفينا أثر تلك المقولة النقدية محاولين رصد تجلياتها في شعر السيد صادق الفحام ،وانطلاقا من تلك المقولة حاولنا سبر القصائد الشعرية التي تناولت تلك الواقعة في شعر السيد صادق الفحام، فقام البحث على تمهيد ،وأربعة محاور موضوعيّة ، وقد عرضنا في التمهيد الى جوانب من حياة الشاعر،ونبذة عن مصطلح (الطفيات) ،أما المحاور الأربع فهي: محور الاستذكار ،ومحور ماقبل المعركة ،ومحور المعركة ،ومحور ما بعد المعركة ،وتلى ذلك خاتمة عرضنا فيها لأهم نتائج البحث

التمهيد

١/جوانب من حياة الشاعر

هو أبو النَّجاة السّيّد صادقُ الحسينيُّ الأَعرجيُّ الحلِّيُّ النَّجفيُّ المعروفُ بالفحَّامِ وُلِدَ سنة (١١٢٤ه)[١] في قريةِ (الحُصين) إحدى قُرى الحلّة الجنوبية الواقعة على الضفّة الشَّرقيّة من نهر الفرات - شط الحلّة اليوم- ونشأ فيها

قرأ مبادىء العلوم على جماعة من أهل الفضل في الحلّة ، فدرس القرآن الكريم ، وتَعلَّم الكتابة وشيئا من اللغة العربيّة من نحوٍ وصرفٍ وأدبٍ على بعضِ أقاربهِ في الحلّةِ . ولما شَعَر بلذّة الثّقافة، وحلاوة العلم عزم الرّحيل إلى مدينة النّجفِ الأشرف؛ ليوسّع من آفاق ثقافته، وعزَّز ذلك رغبةُ أبيهِ الّذي كانَ يحثُّهُ على طلبِ العلمِ ؛فهاجر إليها سنة (١١٥٦هـ/١٧٤٣م) [٢]، فدرس الفقه والأصول وغيرهما من العلوم

وقد((حضرَ الفقهَ على السّيِّد محمد مهدي الطّباطبائي النّجفيِّ[٣] ،وكانَ أظهرَ أساتذته، ومن أصحابه، وحوارييه))[٤]. وكانَ جادّاً في طلب العلم ؛ فحصل على درجة الاجتهاد حتّى صارَ يُعدّ من كبار العلماء[٥] ، وصار أُستاذا في علم العربيّة محقّقا فقيها شاعرا أديبا ، له شعر رائق ونثر رقيق، وقد اشتهرَ بالعديدِ من الألقابِ؛ فهو شيخُ الأدبِ تارة، وقاموس لغةِ العربِ تارةً أُخرى، وكلُّ ذلك بسببِ أدبه الغزيرِ وإحاطتهِ بعلومِ العربيّة واللغةِ[٦]

وقد تتلمذَ عليه الكثير من العلماء، وطلاب العلم، منهم الشّيخ جعفر كاشف الغطاء[٧]، والسيِّد محمد مهدي بحر العلوم اللّذان تسلّما علم الرّياسة والزّعامة الدّينية فيما بعد، وكانا يُقبِّلان يده وفاء منهما لحقّ التّعليم، وتخرّج عليه الأديب والشّاعر محمد رضا النّحوي[٨] الّذي كان يدعوه بالولد البار[٩]

وقد أشاد العلماء، والأدباء بشاعريتِه، فذكرَه السّيِّد محسن الأمين قائلاً:((كان عالماً فاضلاً من أجلّةِ العلماءِ أديباً شاعراً مطبوعاً من سكَّانِ النَّجفِ، ومشاهيرِ شعراءِ عصرِ السيِّدِ مهدي بحر العلوم... حتّى صارَ يُعدّ من كبارِ العلماء... وكانَ إماماً في العربيّة لاسيّما اللغة حتّى دُعيَّ قاموسُ لغةِ العربِ، وله مراسلاتٌ، ومحاوراتٌ أدبيّةٌ مع شعراء عصره غاية في الحسن والظّرافة ...))[١٠]. وقد ذكره الشّيخ محمد الحسين كاشف الغطاء بقوله:(السّيّد الأجل، والسّند المبجَّل،عميد العلماء الأعلام ،السّيّد صادق الفحَّام... شعره كلِّه في أعلى مراتب الحسن، والجودة، والبلاغة ،والفصاحة))[١١]

وقد تركَ السّيِّد صادقُ الفحَّام مجموعة من المؤلفات في مختلف العلوم ،وهذا راجع إلى ثقافته الموسوعيّة، غير أنَّ يد الحوادث قد أتت على بعضها ،أما ما تبقّى منها، فبعضه حُقِّقَ، وبعضُهُ مخطوطٌ، وقد أشارتْ كتبُ التّصانيفِ إلى مؤلفاتِهِ وهي ما يأتي :

أ- ديوانه الشّعري ، وقد حقَّقَه الدّكتورُ مضرُ سليمانُ الحليِّ في سنة (٢٠١١ م)– طبعة دار الضّياء في النّجف الأشرف،ثمّ صدرت طبعة منقّحة للدّيوان،مطبعة فردوس،سنة(٢٠١٣ م)، وهي الطّبعة الّتي اعتمدها الباحث في دراسته .

ب- شرح شواهد قطرِ النَّدى[١٢]

ت- شرح شرائع الإسلام - للمحقِّق الحليِّ - من أول الطهارة إلى صلاة ليلة الفطر[١٣] .

ث- الدّررُ النَّجفيِّة في علمِ العربية[١٤]

جـ- تاريخ النَّجف[١٥] .

ح- الرّحلة الرضويِّة نثراً[١٦] .

خ-فوائد القلائد في مختصر شرح الشّواهد،وتوجد نسخة منه في مكتبة عباس العزاوي في بغداد[١٧]

د- شرح لغز جعفر وصدر[١٨]

وقد ذكر السّيِّد محسن الأمين بأنَّ وفاتَهُ في ٢١ رمضان (١٢٠٥ هـ) معتمداً في ذلك على تاريخ السّيِّد أحمد العطَّار الشّعري ،وكذلك تاريخ السّيِّد محمد زيني في قصيدته التي يرثيه بها (قد شبَّ قلبَ العلمِ فقدُكَ صادقٌ) ،وقد ذهبَ إلى ذلكَ الشّيخ محمد حرز[١٩]

٢/قصائد رثاء الإمام الحسين(A) وإشكالية المصطلح

شكَّل رثاء الشّعراء للإمام الحسين (ع) ظاهرة كبيرة في الشّعر العربي منذ استشهاده(ع) إلى يومنا هذا،وقد ذهب النُّقاد إلى تفسير تلك الظّاهرة المتجددة مع تقادم العصور، حيث تباينت الآراء في ذلك ،فهناك من يرى أنَّ الشّيعة قد وجدوا متنفّسا في مصيبة الإمام الحسين (ع) عمّا كابدوه من ظلم واضطهاد وقتل ، وقد استمرّ ذلك الظّلم إبّان الدّولة العثمانية [٢٠] ،وهذا المعنى يحمل وجها من الوجوه الّتي حفَّزت الشّعراء أن يلجوا إلى رثاء الحسين (ع) من أوسع الأبواب،لكنَّ الأمر لايقتصر على ذلك، فرثاء الحسين(ع) غير مقصور على الشّيعة، فهناك كثير من الشّعراء قد رثوا الحسين (ع) من مذاهب إسلامية أخرى[٢١]،بل أديان أخرى غير الدّين الإسلامي[٢٢] ،وهذا الأمر يؤشر بالدرجة الأولى المنحى الأنساني للنّهضة الحسينية،ثمّ الإسلامي المتمثّل بالإسلام الحقيقي الّذي جاء به النّبي الكريم محمد(ع) ،ولذلك نعتقد أنَّ الشّعراء الّذين رثوا الإمام الحسين(ع) انطلقوا من منطلق أوسع من المذهبية الضّيقة التي لا تلائم مشروع الإمام الحسين (ع)،وإنَّ ذكرهم لما حصل من جرائم يندى لها جبين الإنسانية لا يمكن حصره بإطار مذهبي، وإنّماهو شاهد على جرائم وحشية، وأياد خبيثة امتدت لتطال مقدسات الأمَّة الإسلامية ،بل لأقدس رمز يمثِّل الامتداد الطّبيعي للنّبوة ،تلك الجرائم الّتي أرادوا عبرها أن يؤسسوا لإنحراف خطير؛لينشروا الجرم في بقاع الأرض،ومن هنا كان رثاءالشّعراء للحسين(ع) يشكِّل ثورة صارخة ضدَّ ظلم وإضطهاد كلِّ إنسان من جهة، ومن جهة أخرى يمثِّل رفضا قاطعا لكلِّ مشروع يحاول أن ينال من المقدسات الإنسانية، فضلا عن البعد الرّوحي في الرّثاء المتمثِّل في

مودة أهل البيت (عليهم السلام) ،وهو جزء من مواساة رسول الله في أهل بيته كي يكونوا مثالا في التّلبية لنداء القرآن في دعوته لمودة أهل البيت(عليهم السلام)،إذ جاء ذلك المعنى في قوله تعالى عن لسان الرسول (قل لاأسئلكم عليه أجرا إلا المودة في القربي)[٢٣] .

وإنَّ تلك القصائد التي يرثي بها الشعراء الإمام الحسين(ع) كانت محطّ نظر لدى النُّقاد في إدراجها تحت مصطلح شامل يلمُّ بها من كلِّ الجوانب ، وقد اجترح الدّكتور علي كاظم المصلاوي مصطلح (الطّفيات)، وأطلقه على تلك القصائد التي يرثي بها الشّعراء سيد الشهداء الإمام الحسين (ع) مبيِّنا أنَّها تمثِّل لونا يمتلك سمات بنائية وفنّية تنماز بها عن المراثي الأخرى ، وقد تناول ذلك بإجراء نقدي بيَّن فيه الأسباب الموجبة لاجتراح هذا المصطلح، مستعرضا كلَّ المسميات الأخرى التي يُعتقد أنَّها تفي بالغرض، وقد استعملت في الدّراسات الأدبية ، كالحسينيات والحائريات وغيرها والّتي أوضح سبب قصورها عن أن تحيط بهذا الجانب، وتسدَّ كلَّ الثّغرات الخاصّة بالإصطلاح[٢٤] . وانطلاقا من هذه المقولة سيكون عملنا في مراثي السّيّد صادق الفحّام للحسين(ع) تحت مصطلح الطّفيّات.

وعند قرائتنا لديوان السّيّد صادق الفحّام وجدنا الشّاعر قد رثى الإمام الحسين (ع) بثلاث قصائد وقد بلغ عدد أبياتها مائتين وواحدا وأربعين بيتا .

وكانت طفِّيّات السّيِّد صادق الفحّام قصائد ندب وبكاء لا وجود فيها للعزاء، والتّأبين، والمقصود بالنّدب((البكاء والنُّواح على الميت بالعبارات المشجية،والألفاظ المحزنة الّتي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة))[٢٥] ، ويصور الشّاعر فيه مايعتلجه من آلام نفسية جرّاء فقده عزيز[٢٦] .وهوسبيل أغلب الشّعراء الّذين رثوا الإمام الحسين(ع) وقد تنبَّه شوقي ضيف إلى ذلك الأمر قائلا: ((والشّاعر لايندب نفسه وأهله فحسب ، بل يندب أيضا من ينزلون منه منزلة النَّفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم ، ومراثي الشّيعة من خير الأمثلة التي تصوُّر ذلك، إذ نجدهم يرسلون الدّمع مدرارا كأنَّه لا يريد أن يجفَّ ، وتسيل كلماتهم وأشعارهم المحزونه وكأنَّها تسيل من جروح لا ترقأ في القلوب والأفئدة))[٢٧] .

وقد كانت قصة استشهاد الحسين(ع) حافزا قويا أثار في نفوس الشعراء الأحاسيس المرهفة ،والمشاعر الصّادقة والخيال المجنَّح،كما كانت في وجه من وجوهها تمثِّل جهادهم ضد الدّولة العثمانية[٢٨] .

وقد سار السّيّد صادق الفحّام في طفياته على أربعة محاور موضوعية،تتفرّع من كلّ محور معان تنطوي تحت إطار المحور الرّئيس،ويمكن أن نجمل هذه المحاور هنا على أن نفصِّلها في الإجراء التّحليلي لطفياته،وهي:

أ-محور الاستذكار.

ب- محور ما قبل المعركة.

ت-محور المعركة.

ث- محور مابعد المعركة.

والشّاعر في عرضه لتلك المحاور الموضوعية كانت ذاته ممتزجه، ومصاحبة في كلِّ أجزاء القصيدة؛فذات الشّاعر طاغية في كلّ هذه المحاور، ويلجأ الشّاعر في مراثيه للإمام الحسين (ع) إلى أن يشرك مرثيه في عرض الموضوع؛ لذا نجد أصوات عديدة في قصائده الرّثائية،غير أنَّ تعدد أصوات النّص لا يجعل من ذات الشّاعر مختفية عنه،بل متَّسقة مع كلِّ المحاور، فما أن يعرض الشّاعر لمحور ما إلّا ونجد ذاته تظهر بين الفينة والأخرى تتخلَّل محاور النّص، وهذا الأمر تبع لحالة الشّاعر النّفسية، فيظهر كلَّما اشتدَّ به الألم، والحزن على مشهد من مشاهد الطّف التي يحاول أن يصوّرها ، على أنَّ حديثنا عن ذات الشّاعر في النّص جاء لإعتقادنا بأنَّ ذاته الشّاعرة هي حصيلة تفاعل الذّات الواقعية، وخيالها الفنّي في مراثي الإمام الحسين (ع)؛لأنَّ الفاعلية الشّعريّة ((أولا،عملية خلق في الذّات،ثم ثانيا،عملية انحلال وإيقاض وكشف وإضاءة على المستوى الآخر المتجسِّد بالمتلقي))[٢٩] .ومن هنا فإنَّ تلك الذّات ستعيننا في التّحليل على رصد مشاعر منشئ النّص عبر نصه ،ولايعني ذلك اهمال المتلقي ،لأنَّ أنا الشّاعر في النّص

تمثِّل بوجه من الوجوه أنا المتلقي، وسنحاول أن نعرض لكلٍّ محور موضوعي مع محاوره الفرعية، وهي كما يأتي:

أ/ محور الاستذكار

في هذا المحور يحاول الشّاعر أن يستذكر واقعة الطّف عبر أساليب متعددة ، فهو يحاول أن تهيئة نفسه لتلك المصيبة الأليمة ،واعدادها للبكاء على مشاهد الطّف؛لذلك يلجأ إلى كلِّ ما يمكِّنه من أن يضع نفسه في جو حزين قبل أن يلج إلى مرثيه وهذا من باب التّمهيد النّفسي .

ومن الأساليب الّتي التمسها الشّاعر لتفعيل الاستذكار في نفسه، موضوعة الطّلل،إذ له دور كبير في تفجير مكامن الحزن في النّفس الإنسانية،فكأنّه آية استحضار وإثارة للذّات الشّاعرة، وعبرها يكون التّداعي النفّسي للمواقف المماثلة[٣٠]،وقد بدأ الشّاعر إحدى قصائده بذكر الدّيار، وبكاء الأطلال، وذكر أهلها الظّاعنين، واستذكار حالهم قبل رحيلهم،ووصف أهلها بالجود والكرم والشّجاعة، على أنَّ مشهد الطّلل الّذي يذهب به إلى استعراض الفراق، والاستذكار لأهل الدّيار التي عفتها صروف الدّهور، وقسى على أهلها الزّمان ،فشتّتهم النّوى، لهو خير ما يمكن أن يضع الشّاعر في جو مشحون بالعواطف،وولوج نفسه في فضاءات بعيدة؛ سعيا لاسترجاع أحداث الماضي -تخيّلا- الّتي تثير في نفسه الحسرات والآلام ، فيقيم موازنة بين الماضي المزدهر والحاضر المظلم الّذي تتربعه الأحزان ، إذ يقول:(من الكامل)

هل أنت مما قد رأى إسعادي ... فتعوج بي لديارهم يا حادي؟
كيما أسيل الدَّمع في عرصاتها ... فلعلّه يطفي غليل فؤادي
وأناشد الدِّمن الّتي لعبت بها ... هوج الرّياح روائحا وغوادي[٣١]

فهو يخاطب الحادي؛ ليعوج به على ديار الأحبَّة؛ كي يستذكرها، فيسعد ، ويسيل الدّمع على عرصاتها لعلَّه يطفي غليل فؤاده الّذي ألهبه الحزن؛ لفراقهم، ويناشد الدّمن الّتي لعبت بها الرّياح،وغيَّرت معالمها. والشّاعر هنا يسير على نهج المتقدمين من الشّعراء في استذكارهم ووقوفهم على الأطلال،وحديثه مع الحادي الّذي يبين له المقصد من قصد الدّيار ؛ليولِّد في نفسه حالة من الاستعداد العاطفي قبل الوصول إلى الدّيار ،فهو يستحضر الأدوات التي تمكِّنه من إعلان الحزن.

بعد ذلك يستذكر أهلَّها الظّاعنين ،الذين كانوا كعبة القصَّاد، وهم الّذين أحرزوا قصب العلى،والمفاخر،والشّجعان الذين تعرفهم ساحات الوغى، إذ يقول:(من الكامل)

أين استقلَّت عيس من كانت لهم ... حرم المروع وكعبة القصَّاد
أين الألى قد أحرزوا قصب العلى ... من بين قار في الأنام وباد
أين الألى كانت سحائب جودهم ... مأمولة الإبراق والإرعاد
وجياد خيلهم إذا استعرت وغا ... مرهوبة الإصدار والإيراد[٣٢]

وهذا التّكرار في الاستفهام عن أهل تلك الدّيار يمثِّل الصّدمة التي اكتسحت نفسه وهو يرى تلك المعالم والرّبوع التي عفتها صروف الأيام.

غير أنَّ الطّلل الّذي ذكره الشّاعر هو طلل غير معرَّف، وما أن يتسلسل الشّاعر في ذكر الأطلال، وأهلِّها حتى تندمج لديه الصوُّرة الأولى غير المعرَّفة للطّلل بصوُّر أكثر وضوحا ،وهوفي سياق ذكره للأطلال ،فيقول: (من الكامل)

يا راكب الوجناء أعقبها الونى ... طيُّ المهامه في ربى ووهاد
عرِّج بأكناف الطَّفوف فإنَّ لي ... قلبا إلى تلك المعاهد صادي
وأذل بها العبرات حتَّى ترتوي ... تلك الرُّبى ويعبَّ ذاك الوادي
دمن أغار على مرابعها البلى ... قسرا وشنَّ بهنَّ خيل طراد[٣٣]

فقد ربط في إطار استذكاره الأطلال، والدّيار بين مشهد عام لم يذكر اسمه -وهذا ما جعله مشهدا غائما- وبين مشهد الأطلال المعرّفة الّتي من أجلها رسم المشهد الأول للطّلل، وهذا التدرُّج قد جعل من الشّاعر في جو نفسيٍّ متقدِّم غير الجو الأول الّذي ابتدأ به؛لذلك كانت الصّور أكثر وضوحا من المشهد الأول ، فقد عرَّف طلله هنا وهو وادي الطّفوف، فينادي نفسه –أو خليله- ؛ليصّور النَّاقة الوجناء الجميلة التي أخذ منها التّعب مأخذه، وصار مشيّها فاترا ،ثم يعرِّج بأرض الطّفوف لأنَّ قلبه قد اشتاق إلى تلك المعاهد، فيرخي لدموعه العنان ويسكب العبرات ويروِّي منها أرض الطّفوف ووديها ، ثم يصف الدّمن الّتي أغار عليها البلى .

على أنَّ هناك جوا نفسيا متقدما يذهب بالشّاعر إلى أن يوضِّح ويخصِّص أكثر وهذا الأمر هو نتاج التّطور النّفسي في تهيئة الشّاعر في المشهدين السّابقين ، لينتقل إلى قلب الحدث، ويخصص اتِّجاهه، فيذكر كربلاء ، فهي كرب وبلاء قد عظمت على الأحشاء ،وهي محلُّ الفتن الكبيرة التي عصفت بأهل بيت النّبي (عليهم السلام)،فيقول: (من الكامل)

ياكربلا ما أنت إلا كربـــــــة ... عظمت على الأحشاء والأكبـاد

كم فتنة لك لا يبوخ ضرامهـــا ... تربي مصائبها على التَّعـــداد

ماذا جنيت على النّبيِّ وآلـــه ... خير الورى من حاضر أوبـادي

كم حرمة لمحمَّد ضيَّعتهـــــا ... من غير نشدان ولا إنشـــاد[٣٤]

ويمكن أن نعدَّ هذه المشاهد كلَّها في إطار الاستذكار والتّدرُّج في الجو النّفسي والوصول به إلى أعتاب الواقعة فهي العتبة الأولى.

وقد يلجأ الشّاعر الى مرحلة متقدِّمة يبدأ بها، ولايلج إلى الطّلل، وإنَّما يدخل إلى موضوعه مباشرة، ولكن يرسم صورة عامّة تمزج بين حزنه المتَّسق، مع صورة الواقعة العامّة دون أن يفصِّل، وهي أيضا تهيئة وإعداد للنَّفس بدرجة من الدّرجات الّتي يكشف نتاجها صورة النّص الكاملة الّتي تدلّنا إلى أيِّ مدى كان الشّاعر قد استذكر الواقعة ،فيقول:(من الخفيف)

عين جودي على الغريب القتيل ... وأطيلي البكا على ابن الرَّسول

واستمدي دم الفـــؤاد إذا مـــا ... نفد الدَّمع للمصاب الجليـــل

لمصاب بكـت له الجنُّ والإنـــ ... ـس بدمع قد سال كلَّ مسيـل

لمصاب أبكـــى السَّماوات حزنا ... بدم هاطل ودمع همـــــول[٣٥]

فهو يأمر عينه أن تجود بالدّمع، وأن تطيل البكاءعلى سيِّد الشّهداء الحسين(ع) ذلك الغريب المقتول، وهذا من باب الإعداد للبكاء، وإن نفد الدّمع منه فلتستمد دم الفؤاد لذلك المصاب الجلل الّذي أبكى الجنّ، والإنس، والسّماوات والأرض ، وهذا الأمر من شأنه أن يعزز استذكار الواقعة، ومشاهدها المروِّعة ، لينتقل بعد ذلك إلى المرحلة الأخيرة من الاستذكار التي يلج عبرها إلى عرض تفاصيل الواقعة ممزوجة بأحزانه .

فالشّاعر بعد هذه المشاهد التعبويِّة التي كرّسها، تكتمل لديه الصورة، فيفصح بعد ذلك عن أنَّه لم ولن ينسى الحسين الشّهيد المظلوم الّذي ضحَّى بكلِّ غال، ونفيس في سبيل الله(عز وجل) .

فهويستذكر الفاجعة الأليمة التي حلَّت بأهل البيت (عليهم السلام) في واقعة كربلاء ، ويكون استذكاره صورة مكتملة في ذهنه وهذا الاكتمال يجعله يصرِّح بأنَّ الواقعة غير غائبة عنه، بل تعيش في خلده في كلّ حين ،فيقول : (من الكامل)

تا الله لا أنساة وهو بكربـــلا ... غرض يصاب بأسهم الأحقـــــاد

تا الله لا أنساه وهو مجاهـد ... عن آله الأطهار أي جهـــــاد[٣٦]

فقد استعمل الشّاعر صيغة القسم ؛ليؤكّد ما يذهب إليه ، فهو لا ينسى الحسين (ع) الّذي صار غرضا لسهام الحقد، ويعزّز تأكيده بعدم النّسيان بتكرار القسم في البيت الثّاني ، فهو لا ينسى ذلك المجاهد الّذي يذود عن آله الأطهار، على أنَّ ذلك ليس كأيِّ جهاد ،فهو الجهاد المقدَّس الّذي فتح طريقا لكلِّ الأحرار بأن يقارعوا الظّلم والجبروت ،والطّغيان ،وكرَّس ذلك بأروع مشاهد التّضحية والفداء .

وهذا المعنى قد دأب عليه الشّاعر في مراثيه للإمام الحسين(ع)، فالاستذكار وسيلة الشّاعر ؛لينطلق منها إلى معاني تثير الشّجون، وتقرِّح الجفون، ففي قصيدة أخرى يسوق ذلك المعنى في قوله :(من الخفيف)

لست أنساه بالطّفوف غريبا مفردا نازحا عن الأوطانِ
لست أنساه بالطّفوف وحيدا بين أهل العناد والطّغيانِ[٣٧]

فالشّاعر هنا يلحُّ على أنَّه لم ينس الإمام الحسين (ع) عبر تكرار ذلك المعنى ،فهو لا ينساه وهو بوادي الطّفوف غريبا وحيدا بعيدا عن الأوطان، وقد أحاط به أهل العناد ،والطُّغيان من كلّ صوب وحدب .

وقد عزَّز الشّاعر ذلك المعنى كما أسلفنا، بتكرار الجملة تارة، وتأكيده بالقسم تارة أخرى ، ثم جاء التّوازي في هذين البيتين- بين شطريهما- ليعزِّز من ذلك أيضا فهو إلى جانب دوره في رفد الموسيقى الدّاخلية بجرس إنساب بتكرير الوقع الموسيقي،عزّز المعنى الّذي يدعم حالة الشّاعر التي لا تحاول أن تترك ذلك المعنى الّذي استقر في نفسه .

والشّاعر بذلك المعنى إنَّما يمهِّد خياله كي يحلق في فضاءآت الواقعة، ومن هنا تبدأ المشاهد،والأفكار تتداعى لتمتثل لمخيلته، وبذلك يكون قد استحضر الواقعة بصورها في ذهنه؛ ليحاول أن ينقلها إلى المتلقي بأسلوب فني شعري ،على أنَّ الملاحظ أنَّ ذات الشّاعر طاغية في النّصوص، فهو يتنازعه الحزن، والألم لما جرى في تلك الواقعة ،و يكابد الألم، والحسرات، والتّلهف على ذلك المصاب الجلل .

ب/محور ما قبل المعركة

في هذا المحور يعرض الشّاعر إلى تصوير مشاهد طفيِّة، وفرسان تستعد للشّهادة في سبيل الله(عز وجل)، ويدور هذا المحور على عرض نزول الرّكب الحسيني بأرض كربلاء، ومخاطبة الحسين(ع) لمعسكر عمر بن سعد، وحجاجهم وحديثه مع الأنصار،وسرده إلى ماسيؤول إليه الأمر في هذه الأرض.

ويحاول الشّاعر أن يصوُّر مشاهد المحور على لسان مرثيه -الإمام الحسين(ع)-، ولذلك نجد تعدد الأصوات في مراثيه على أنَّ صوته يختفي وراء الصّوت الآخر ثمّ لا يلبث أن يظهر واضحا بعد مشهد ما؛ لتعمُّق الألم في نفسه التي لا تستطيع إلّا أن تعبِّر عن أساها وحزنها العميق .

والشّاعر عندما يستحضر الواقعة يحاول أن يتسلسل معها في بادئ أمره مسخّرا لذلك عناصر الفنّ الدّرامي؛ لتقريب المشهد،فيقول على لسان الأمام الحسين (ع):(من الخفيف)

فابتدا قائلا ما اسم ذي الأر ض الّتي قدكرهت بها نزولي
قيل ذي كربلا فقال لهم :حط ـطوا رحالي قد حان وقت رحيلي
إنَّ في هذه البقاع ابتلائي وامتحاني ومثلتي ومثولي
وبها يصبح العزيز من الأط ـهار في قبضة الحقير الذَّليل
وبها تسفك الدِّماء من الآ ل ببيض الظُّبى وزرق النُّصول[٣٨]

فأول معنى يتبادره هو نزول الرّكب الحسيني المقدّس بأرض كربلاء، وسؤال الحسين (ع) عن اسم تلك الأرض ، وبعد أن يعرفها الإمام (ع) يتأكّد من أنّها هي الأرض الّتي سيكون عليها النّزال المصيري الحاسم الّذي يمهّد، ويؤسس لمنطلق جديد يقضُّ مضاجع الظّالمين ،على أنَّ الإمام الحسين (ع) ينبئ بمصيره، ومصير أصحابه، وأهل بيته الأطهار (عليهم السلام) في تلك الأرض. وقد أطلق الشّاعر صوت مرثيه ليعبِّر عمَّا سيجري في تلك الأرض مسخِّرا لذلك أسلوب الحوار؛ لأنَّ هذا الأسلوب أعمق تأثيرا وأشدّ وقعا في نفوس متلقيه،فقد وظَّف أسلوب السّرد في ذلك؛ ليوفّر له فضاء رحبا في طرح الواقعه ؛ فالشّخصيات حقيقية وهم أبطال واقعة الطّف ،والسّارد هو الشّاعر ،والبطل هو الإمام الحسين (ع)،والأنصار هم شخصيات مساعدة ،والمكان هو كربلاء أما الزّمان فهوشهرالمحرم،ويدور الحوار بين البطل، والشّخصيات الأخرى. بعد ذلك يطرح البطل خارطة الطّريق الّتي يُطلع عبرها أصحابه وأهل بيته على ما سيجري ،فيجعلهم في حلٍّ من أمره، فمن يختار البقاء ،أو الانسحاب، فله ذلك ، فيقول بصوت الإمام الحسين (ع) :(من الخفيف)

فمن اختار نصرتي فليقم عنـ ـدي وإلّا فلينصرف بأمان[٣٩]

وما أن يتمَّ كلامه فإذا بصوت الأنصار الّذين جاءوا بعقيدة راسخة، ويقين من أمرهم ، ليجيبوا بشدَّة شوقهم إلى الشّهادة بين يديه على أنَّهم سيكرّسوا معاني البطولة والفداء يوم النِّزال، ويصور الشّاعر ذلك بصوت الأنصار:(من الخفيف)

فانبرى في جوابه كلّ نـــدب طاهر العنصرين ثبت الجنـــانِ

كيف نمضي وأنت بين الأعادي عادم الصَّحب فاقد الخـــلانِ

لا نولّي أو نُطعم الموت ضربـا بحسام أو طعنة بسنـــانِ

قال جوزيتم الجزاء المهنَّـــى من إله العرش الرّفيع الشَّـانِ[٤٠]

ومن مضامين محور ما قبل المعركة حوار الحسين (ع) مع معسكر عمر بن سعد،ومحاججة الجيوش الزّاحفة لقتله، فهو يذكّرهم، ويلقي عليهم الحجة ،ويظهر الشّاعر ذلك باستعماله أسلوب الحوار، ووسيلة تعدد الأصوات داخل نصّه، إذ يندمج صوت الشّاعر مع صوت الإمام،ليظهر صوت الإمام، وهذا من شأنه أن يعزِّز المعنى ويعمّق الشّعور بالحزن إذ يقول:(من الخفيف)

أيّها القوم : لـــم خفرتم ذمامـــي بعد تلك العهـــود والإيمـــانِ

وأبحتم قتلي وسبـــي حريمـــي وانتهاكي بين الورى وامتهانـــي

وحميتم مـــاء الفرات علينـــا وهو طامي العباب للظّمـــآنِ

أترون النّبي أوصـــى بهـــذا أم به جاء محكم القـــرآنِ

أم تروني شرعت ماليس في الشّر ع خروجا به عـــن الأديـــانِ

أم تروني أسلفت فيكم جنايـــا ت مضت في سوالف الأزمـــانِ

أو ليس الزَّهراء أمي وجـــدِّي الـ مصطفى ذو البيان والتّبيـــانِ

وأبي المرتضى عليٌّ إمـــام الـ ـخلق طرا من بين قـاص ودانِ[٤١]

فالشّاعر يصوُّر ذلك المشهد الّذي يلقي الإمام فية الحجة على الأعداء ،مستعملا لذلك أسلوب الاستفهام الاستنكاري الّذي يتيح له عرض المشهد،فيتيح للصوت الآخر أن يحاجج القوم متسائلا

عن تلك الجفوة الّتي بدت منهم ،ويوسّع الاستفهام ؛ليعرض عبره الجوانب الشّرعية،واتّصاله النّسبي ،والدّيني ببيت النّبوة ومهبط الوحي.

ت/محور المعركة

يدور هذا المحور حول تصوير الواقعة التي دارت في أرض الطّفوف، تلك المعركة التي أسَّست لرؤية إسلامية شاملة، وحفزَّت الهمَّة، والمبدأ في نفوس المسلمين، وجعلت مبدأ الممانعة ضدَّ كلّ من يروم النّكوص إلى الجاهلية، ويحاول حرف الرّسالة عن أهدافها المقدّسة .

والشّاعر في هذا المحور يعرض ثلاثة مواضيع فرعية: الموضوع الأول يصوّر به الجولة الأولى الّتي أسفرت عن استشهاد أنصار الحسين وأهل بيته،أما الموضوع الثّاني يعرض فيه حال الحسين (ع) وقد بقي وحيدا دون ناصر أومعين،أما الموضوع الثّالث ،فيصوُّر فيه صولة الحق المتمثّلة بالحسين (ع) وتصوير شجاعته وذوده عن الإسلام ثمّ استشهاده.

فأوَّل ما يعرض له الشّاعر في هذا المحور هو وقوع الصّدام بين المعسكرين ، معسكر الإمام الحسين (ع)، ومعسكر عمر بن سعد إذ يقول:(من الخفيف)

لهف نفسي غداة دارت رحى الـ ـبين على صحبه بخطب مهول[٤٢]

فالشّاعر يتلهَّف على ذلك الموقف الّذي يعبِّر عن قوة إيمان لدى أصحاب الحسين (ع)، ورسوخهم في العقيدة، وهم يدافعوان عن حياض الإسلام.

ويرسم الشّاعر ذلك المشهد بصورة أوسع في قصيدة أخرى، فيصور زحف الجيوش على خيام الحسين (ع)، ثم وقوع المعركة التي تصرّمت بها نفوس زكية فيقول :(من الكامل)

حتَّى إذا زحفت عليه جموعهـــم ما بين أعداد إلى استعـــــدادِ

وتزاحمت أبطالهم في موقـــــف سطت الكلاب به على الآســـادِ

وتصادمت تلك الكماة بمعـــــرك كثر الأسير به وعزَّ الفـــــادي

وتصرَّمت مهج الفوارس حيثمـــا منيت بيوم تلاحم وجـــــلادِ[٤٣]

فقد صوُّر زحف الجيوش على خيام النّبي(عليهم السلام) ، حيث أعدّوا ،واستعدوا بالجنود، والسّلاح للقضاء على البيت المحمدي ،فجمعوا أبطالهم لذلك اليوم الّذي سطت به الكلاب على الأسود ،وقد وقع النِّزال بين معسكر الحق الّذين هم ثلة قليلة ومعسكر بني أمية الّذين جيَّشوا الجيوش الجرارة ، فكانت النتيجة إن استشهد أنصار الحسين، وأهل بيته (عليهم السلام).

بعد أن تسفر المعركة عن استشهاد أصحاب الحسين وأهل بيته،يبقى وحيدا لايجد ناصرا ،فيرسم الشّاعر ذلك الموقف بقوله:(من الخفيف)

وبقى مفردا ينادي :ألا هل ناصر مسعد لآل الرسول[٤٤]

ومن المعنى نفسه قوله :(من الكامل)

فرد من الخلَّان مابين العدى خلو من الأنصار والإنجـــــاد

لهفي له والتُّرب من عبراتـــه ريَّان والأحشاء منه صـــوادي[٤٥]

فقدرسم الشّاعر تلك الصّورة الّتي تعبِّر عن عمق الفاجعة، الّتي عصفت به وهو يستحضر تلك المشاهد التي عُدم فيها الأعداء من الإنسانية ،وقد كرَّر معنى انعدام النّاصر، وبقاء الإمام وحيدا في ساحة المعركة (فرد من الخلان ، خلو من الأنصار)، وجاء ذلك ؛لتأكيد المعنى وتعزيزه في نفس المتلقي ، وفضلا عن ذلك فإنَّ الجناس في (خلان ،خلو) زاد من انسياب الموسيقى الدّاخلية للبيت ،ثم جاء التّوازي النّحوي بين (فرد من الخلان ،خلو من الأنصار) الّذي يدعم الانسياب

الموسيقي في البيت ، ثم قابل الشّاعر بين معنيين في البيت الثّاني عطش الحسين، والتّرب الّذي ارتوى من عبراته في -(ريَّان ،صوادي) ، فإنَّه أورد الارتواء بصيغة المفرد الّذي يعودعلى التّرب الّذي شخَّصه هنا؛ ليزيد من حيوية الصّورة، ويصوُّر مدى حزن الإمام (ع)، وشدَّة بكائه على الأمَّة الّتي ضلَّت طريق الحق ،بينماأورد معنى العطش بصيغة الجمع الّذي يعود على أحشاء الإمام الحسين (ع)؛ ليصور أنَّ كلَّ أحشاء الإمام (ع) كانت في حالة العطش الشّديد.

ومن معاني هذا المحور،جهاد الحسين(ع)، وشجاعته ،فهو ينازع في المعركة ،ويجود بنفسه بين الرماح، والسّيوف التي اشتبكت على جسده المقدَّس،فيقول الشّاعر في ذلك:(من الكامل)

متكلِّفا شططا يجود بنفسه بين الصّوارم والقنا الميَّاد[٤٦]

والى جانب المعنى الّذي أورده الشّاعر في هذا البيت، كان له أسلوب فني في رسم ذلك المشهد فهي صورة متحرّكة، وكأنَّ المتلقي يشاهد جعجعة المعركة، وقد اشتبكت السّيوف والرّماح على الجسد الشّريف.

ثم لا يلبث الشّاعر أن يظهر صوته الحزين على ذلك المشهدالمؤثر؛ليعبِّر بصوته عن عمق الفاجعه، وشدَّة وقعها عليه إذ يقول:(من الخفيف)

حرَّ قلبي له يصول على القــو م وفي القلب منه حرُّ الغليـــــل

حرَّ قلبي له وقد خرَّ لـــــــلأر ض صريعا يجود فوق الرّمول[٤٧]

فقد كرر جملة (حرَّ قلبي) وهذا تأكيد على عمق الألم والحزن الشّديد الّذي يكتنفه،فجاء ذلك التّكرار متّسقا مع التّجربة الشّعورية للشّاعر،وبما يتناسب مع الطّابع العام الّذي يهيمن على القصيدة وهو عطش الحسين(ع).

بعد ذلك يصوُّر الشّاعر حال الإمام الحسين، وهو في تلك الحالة، وقد أقدم يذود عن حرم رسول الله (عليهم السلام) ،فيقول:(من الكامل)

ألوى بعضب ممتــع بخشونـــــة لا تمتع الأرواح بالأجســـــادِ

من فوق ظهر أقبَّ أجرد سابـــح نهد أشمِّ المنكبين جـــــــوادِ

خوَّاض كلِّ عجـــاجة مسوَّدة الـ أرجاء سبَّاق إلى الآمـــــــادِ

فغدا يكرُّ على الجحافل صائـــــلا هدر الفنيق يصــول في الأذوادِ

ويجول في الأبطال جولة ضيغــم ظام إلى مهج الفوارس صـــادِ

أردوه عن ظهر الجواد كأنَّمـــــا هدموا به طودا من الأطــوادِ[٤٨]

يصور في تلك الأبيات صولة الإمام على جيوش الكفّار،وقد عمد في ولوجه إلى جو المعركة إلى تصوير أدواتها ،ولعلّ أهم أدواتها السّيف الشّديد على الكفّار،والفرس الأصيل ، فوصف الفرس بثمان صفات تتشكّل عبرها صورته، فهو من أفضل الجياد وأمهرها في خوض المعارك،ثم يعرض للفارس الشّجاع الّذي ببأسه يجعل من تلك الأدوات محطَّ اهتمام، ينتهي بعد ذلك النِّزال الشّديد محور المعركة باستشهاد الحسين (ع)،فقد تحاوشته ذؤبان القوم من كلّ جانب حتى خرَّ من على جواده، فكأنَّ الجبال الشّم قد هوت.

ث/محورما بعد المعركة

وهو المحور الّذي يعرض فيه الشّاعرالى أحداث واقعة الطّف بعد انجلاء المعركة واستشهاد الحسين، وأهل بيته وأنصاره، فتأخذ الواقعة منحى آخر له أبطاله، وخطابه وأساليبه المتساوقة مع تلك المرحلة ، والشّاعر هنا يركّز على حال العيال من نسوة وأطفال،وعليل،وصرعى في ساحات الوغى ، ويتلهَّف، ويثير عاطفة متلقيه على تلك الأرامل واليتامى وهنَّ يندبن قتلاهنَّ، وقد أخذن أسارى من بلد إلى بلد.

وقد عمد في تصويره حال العيال، والأطفال إلى وسائل من شأنها أن تسلط الضوء على الواقعة، وتزيدها تأثيرا في نفس المتلقي ،فتارة ينقل ما حدث بعد المعركة بصوته فيقول:(من الخفيف)

ثمّ مالوا إلى الحريم فعـــادت بين بكر مسبيَّـــة وعـــوانِ
بعد سلب الحليِّ منهنَّ والخمـــ ـــر وخرم الأقـــراط في الآذانِ
ثمَّ ساروا بهنَّ فوق المطايـــا حاسرات يشهرن فـــي البلـــدانِ
معجلات بالسّيـــر نحو يزيد متعبات القلـــوب والأبـــدانِ
ورؤوس القتلى تسيـر أمام الر ركب مثل البدور في الخرصـــانِ(٤٩)

فالشّاعر يبيّن الحالة التي أمست عليها عيالات النّبي (عليهم السلام)، بعد قتل الرّجال،فقد مال الأعداء إلى الحريم وسلبوهنَّ الحلي، وخرموا آذانهنَّ وهم ينتزعون الأقراط، حيث كانت حالة السّلب تجري بوحشية ،وقد ساروا بهنَّ مسبيات فوق المطايا حاسرات الوجوه يشهَّر بهنَّ في البلدان ،ويعجلون بالسّير نحو يزيد ،وقد أُتعبنَّ من شدَّة السّير ،فضلا عن تعب القلوب التي أضناها الألم والحزن ،ويزيد من ألمهنَّ، وحزنهنَّ رؤوس قتلاهنَّ المرفوعة أمامهنَّ في موكب السّبايا ،كالبدور.ويغلب على هذا المشهد الصّفة التّقريرية، ولعلَّ الشّاعر عمد إلى ذلك؛لينقل الصّورة على وفق ما جاء في المصادر التّأريخية ويجعلها يسيرة للمتلقي ٠

ومن الأساليب التي استعملها الشّاعر في تصوير ما بعد الواقعة، عرضها بصوت أحد أبطالها،فقد حاول أن يعمّق ويوثق الحادثة ملتمسا لذلك وسيلة فنّيّة وهي الاستعانة بعناصر الفنّ الدّرامي،ومن ذلك عرضه للأحداث بصوت السّيّدة زينب (ع)، فإشراكه أصوات أخرى في نصّه، وفسحه المجال لها أن تتكلم جاء ؛لتأثره بتلك الفاجعة ولتعميق الأثر في المتلقي ؛لأنَّ الصوت الأخر الّذي يختبئ صوت الشّاعر خلفه هو صوت أحد أبطال الواقعه،ومن الشّاهدين على ما حصل في تلك الواقعة،والّذين شاطروا الإمام الحسين(ع) في نهضته،ولاقوا جرَّاء ذلك أبشع صنوف التّعذيب هذا من جانب، ومن جانب آخر يعرض لمشهد من مشاهد الطّف عقب انتهاء المعركة، وهذا فصل آخرمن الواقعة، حيث يصوُّر الشّاعر حال النّساء والعيال ،وحال زينب (ع) وهي تعاتب أخاها الّذي قُطِّع جسده بسنابك الخيول ورُفع رأسه على السّنان،فيقول :(من الكامل)

فدعت:فديتك يا حسين وكيف لـــي بفداك في طرفي وفي إتـــلادي؟
ما كنت أحسب أنَّ زندك بعدمـــا أورى الضِّرام يصاب بالأصـــلادِ
أو أنَّ حتفك كان سرًّا مودعـــا تنشق عنه ضمائر الأغمـــادِ
أتُراك يابن أبي علمت بأنّنـــا بلغت بنا الأعداء أيَّ مـــرادِ
أم هل علمت بأنَّ شمل بنيك قـــد عصفت به ريح الشَّتات بـــدادِ؟
أم هل علمت بأنَّ نجلك يشتكـــي كرب السَّقام وكلفة الأصفـــادِ؟(٥٠)

فهو يعرض آلام وأحزان السّيّدة زينب(ع)بصوتهامن جانب، ومن جانب آخر يوفِّي المعنى الّذي يرومه،على أن ذلك الصّوت انطلق من رحم الواقعة،ومن ساحاتها،وعرصاتها،فيفسح له ذلك الصّوت أن ينطلق بحرية في تصويره،وقد استعمل أسلوب الاستفهام في كلِّ الأبيات ،ولعلَّه في كثرة استعماله الاستفهام يحاول أن يفتح تساؤلا مفتوحا حول ما جرى في تلك الواقعة الّتي تحيل على الذّهول والحيرة مما جرى فيها من مشاهد مروِّعة.

ومن الأصوات التي كرَّسها الشّاعر في مراثيه صوت السّيّدة سكينة بنت الإمام الحسين(ع)، وإحدى النّساء اللواتي شهدنَّ واقعة الطّف، وقد رأت مصارع أهلها وإخوتها يقتَّلون،وتعرّضت كباقي بنات الرّسالة إلى السّبي،والأسر،وقد استثمر الشّاعر هذا الصّوت في ندبه للحسين (ع)

فالسّيّدة سكينة (ع) تسأل عمَّتها زينب (ع)عن أبيها وكفيلها ، وعن حامي حريم المصطفى بعد مصرع الإمام الحسين (ع) ،ثم تسألها عمَّن يرحم الأيتام، وقد بريت أجسادهم من الضّنى،والنّحول،فيصور الشّاعر ذلك بقوله :(من الخفيف)

لهف نفسي على سكينة تدعو:	**عمَّتا أين واحدي وكفيلي**
عمَّتا من ترين يحمي حريم الـ	**ـمصطفى بعد مصرع المقتولِ**
عمَّتا من ترين يرحم أيتاما	**براهم فرط الضّنى والنّحولِ**[٥١]

بعد ذلك يصوّرها وهي تستغيث بجدّها رسول الله(عليهم السلام)وتندبه؛ كي يرى الحسين قتيلا، والنساء سبايا في ذلّة وحيرة ،ثمّ تناشد الزّهراء(ع)؛ كي ترى فاجعة كربلاء ورأس ولدها مقطوعا، ومرفوعا فوق رأس رمح طويل، ثمّ تستغيث بجدِّها الكرار؛ ليرى السّجاد العليل وهو يساق أسيرا، إذ يقول الشّاعر:(من الخفيف)

أين جدي يرى الحسين قتيلا	**والسّبايا في ذلَّة وخمول**
أين أمي الزَّهراء حتّى ترى	**رأس ابنها فوق رأس رمح طويل**
أين جدِّي الكرَّار حتّى يرى السّجـ	**ـاد في كربة وقيد ثقيل**[٥٢]

وقد استعمل الشاعر أداة الاستفهام(أين) المكانية في تلك الأبيات ؛ليصوغ ندب السيدة سكينة(ع) ،فالاستفهام خرج لأغراض بلاغية ،واستطاع الشاعر أن يوظفه في تلك الأبيات ليصوّر ذلك المشهد الّذي يعكس معاناة بناة الرسالة وهنّ يستصرخن ولا من مجيب ،ثمّ صببن ندائهنّ بعد اليأس الى أعمدة الدين ،وكأنّها صرخة استنكار محمّلة بلواعج الحيارى اللواتي يعكسن ما جوزي به النّبي وأهل بيته(عليهم السلام) على تأسيسهم لأعمدة الدين الإسلامي الحنيف.

الخاتمة

بعد محاولتنا تلك في دراسة طفيات السيد صادق الفحام توصلنا الى جملة من النتائج أهمها ما يأتي:

-سار الشاعر في طفياته على محاور موضوعية متعددة تصب في رسم ملامح واقعة الطف الأليمة ،وقد تدرج في بناء قصائده متسلسلا مع الحادثة بشكل قصصي درامي

-كان محور الاستذكار وسيلة الشاعر في تهيئة نفسة لاستحضار الواقعة ذهنيا والتعبير عنها شعريا،وقد استعمل لذلك وسائل متعددة منها،المقدمة الطللية،والتأكيد على عدم نسيان تلك الواقعة وذلك الموقف للإمام الحسين(ع)

- صور الشاعر في محور ما قبل المعركة الاستعدادات لها وقد استعان بعنصر الحوار الذي مكّنه من أن يلج الى شخوص الواقعة ويعكسها الى المتلقي عبر الحوار

- استطاع الشاعر في محور المعركة أن يصور الصراع والجهاد والمعاناة التي واجهت الحسين(ع) ومعسكره وهم يذودون عن حياض الدين ،كما استطاع أن يصبغ ذلك المحور بلواعجه وآلامه حزنا على ما لاقاه الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه من جفاء وحقد دفين

- استطاع الشاعر أن يطرح جانبا مما جرى على عيالات النبي(عليهم السلام) بعد انتهاء المعركة فصور مشاهد السبي والسلب والتشريد ،صابغا تلك المشاهد بآهاته وحسراته التي بثها في ثنايا تلك الصور المرعبة

-استعان الشاعر في نصوصه الطفية بعنصر تعدد الأصوات،وقد ركز في محور ما بعد المعركة على دور السيدة زينب(ع)،مستعينا بصوتها في نقل الواقعة،كما استعان بصوت السيدة سكينة (ع)،فهما صوتان عايشا الواقعة وانبعثا من فضاءاتها،فضلا عن الجانب المأساوي المنعكس من هذين الصوتين

-استعان الشاعر بعناصر الدراما في بناء نصوصه الطفية ،فقد تعددت الأصوات في تلك النصوص كما استعان بالحوار،وتصوير الصراع والشخصيات

-أفضت محبة الشاعر لأهل البيت(عليهم السلام) الى نجاحه في تصوير تلك الشخصيات وعمق حزنها ومرارتها

الهوامش:

[١] -ينظر: أعيان الشيعة : ١١ / ٣٧٧ .

[٢]-ينظر: صفحات من تاريخ الحلة ،د.مطر حمزة الزبيدي ،ود.يوسف كاظم جغيل الشمري، دار الرضوان للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية – عمان ، ط١ (١٤٣٤ ه-٢٠١٣ م) :٣٥٥.

[٣]- السيد محمد مهدي الطباطبائي الشهير بـ (بحر العلوم) : هو السيّد محمد مهدي بن مرتضى بن محمد بن عبد الكريم بن مرادين شاه أسد الله بن جلال الدين يتصل نسبهُ بإبراهيم الغر بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) ، أشهر مشاهير عصره، تزعم الدين ونال الرياسة العليا، ولد في كربلاء عام (١١٥٥ هـ)، توفي في النجف عام (١٢١٢ هـ) وكان يومه مشهوداً، دفن في مقبرته الخاصة قرب قبر الشيخ الطوسي . ينظر : الطليعة من شعراء الشيعة، الشيخ محمد السماوي (ت ١٣٧٠هـ) ،تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار المؤرخ العربي ، بيروت – لبنان ، ط١،(١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م): ٣٦٣/٢ وما بعدها.

[٤]- معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء، حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد حرز الدين ، علق عليه :محمد حسين حرز الدين،منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ،مطبعة الولاية ، قم – إيران ،١٣٥٨ ه:١ / ٣٦٦.

[٥]-ينظر:مع علماء النجف الأشرف من سنة(٤٤٨-١٣٠٠هـ)، محمد الغروي،منشورات دار الثقلين ، بيروت – لبنان،ط١،(١٤٢٠ ه-١٩٩٩ م) :٥٧٩.

[٦]-ينظر: معارف الرجال:١ / ٣٦٦.

[٧] - الشيخ جعفر بن الشيخ خضر الشهير بـ (كاشف الغطاء) : هو : الشيخ جعفر بن الشيخ خضر بن يحيى بن مطر بن سيف الدين ، ولد في حدود سنة ١١٥٦هـ ، تتلمذ على والده الشيخ خضر وعلى الشيخ محمد مهدي الفتوني العاملي النجفي ، وعلى السيد صادق الفحام والشيخ محمد تقي الدروقي وغيرهم . من آثاره : كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء ، وشرح أبواب المكاسب من قواعد العلامة ، توفيّ يوم الأربعاء قبل الظهر في أواخر شهر رجب سنة ١٢٢٨ هـ ودفن في مقبرة أعدها لنفسه .ينظر: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ،خير الدين الزركلي ،دار العلم للملايين،بيروت-لبنان،ط١٥ ،٢٠٠٢ م:٢ / ١٢٤ .

[٨] - الشيخ محمد رضا النحوي : هو الشيخ محمد رضا بن الشيخ أحمد بن حسن الحلي النجفي الشاعر الشهير في عصره ، ويعرف بالشاعر ولد بالحلة ، في أواسط القرن الثاني عشر ، ثم انتقل إلى النجف ، فتتلمذ على أعلامها كالسيد مهدي بحر العلوم والشيخ جعفر كاشف الغطاء والسيد صادق الفحام وغيرهم .ينظر : أدب الطف أو شعراء الحسين :١٤٢/٦

[٩]- ينظر : ماضي النجف وحاضرها: ٤٥٤/٣ .

[١٠] - أعيان الشيعة:١١ /٣٧٧.

[11] -العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية-تاريخ المرجعية الدينية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين-،الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء(ت ١٣٧٣ ه-١٩٥٤ م)،تحقيق:د٠ جودت القزويني،بيسان للنشر والتوزيع ،بيروت –لبنان ،ط١ ،(١٤١٨ ه-١٩٩٨ م):.١٤٧

[12] -ينظر: شعراء الحلة أو البابليات : ٣ /.٥٥

[13] - ينظر:م.ن:٣/٥٤.

[14] - ذكره الشيخ محمد محسن في طبقات أعلام الشيعة: ٢/ ٦٤٣ وقال : ((رأيته في مكتبه الشيخ علي كاشف الغطاء في النجف)).

[15] -ينظر:شعراء الحلة أو البابليات:٣/٥٥ .

[16] - ينظر:أعيان الشيعة:١١ / ٣٧٨.

[17] -ينظر:المفصَّل في تاريخ النجف:٤ /.٤٠٢

[18] -ينظر:م٠ ن:.٤٠٢

[19] - ينظر: أعيان الشيعة : ١١ / ٣٧٧،و ينظر: معارف الرجال :١ /٣٦٨.

[20] -ينظر:تطور الشّعر العربي الحديث في العراق:٣٤ ،وينظر:حركة الشّعر في النجف الأشرف:.١٩٥

[21] -ينظر مثالا على ذلك:شعراء أهل السنة في العترة سادات أهل الجنة،السيد محمد علي حسين آل مرتضى(١٣٨٥ ه)،دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت-لبنان،ط١ ،(١٤٣٢ ه-٢٠١١ م)٠

[22] -ينظرمثالا على ذلك:الحسين في الشّعر المسيحي،سعيد رشيد زميزم،دار الجوادين،لبنان- بيروت،ط١ ،(١٤٣٣ ه-٢٠١٢ م).

[23] - الشورى:.٢٣

[24] -ينظر:الطفيات المقولة والإجراء النقدي،د٠ علي كاظم المصلاوي،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،بيروت ،ط١ ،(١٤٣٣ ه-٢٠١٢ م):١٤ وما بعدها .

[25] -الرثاء :.١٢

[26] -ينظر:الرثاء بين الذات والآخر ووجهة الزمن في الجاهلية وصدر الإسلام،علي أحمد عبد الرضا،رسالة ماجستير،كلية التربية،جامعة بابل،٢٠٠٧ م :.٧

[27] -الرثاء :.٥

[28] -ينظر:الشّعر العراقي ،أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر،د٠ يوسف عز الدين،دار المعارف، القاهرة ،١٩٧٧م:.٨٧

[29] - جدلية الخفاء والتجلي -دراسات بنيوية في الشعر-، كمال أبو ديب ، دار العلم للملايين ،بيروت ،ط٢ ،١٩٨٤ م:.٣٦

[30] -ينظر:فلسفة المكان في الشعر العربي –قراءة موضوعاتية جمالية-،د.حبيب مونسي،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ٢٠٠١ م:٢٢ .

[31] -الديوان:.٤٩

[32] -م.ن:٥٠.وهكذا وردت لفظة (وغا) في الديوان والصواب هو (وغى)

[33] -م.ن:.٥١

[34] - م.ن:٥١ -.٥٢

[35] -م.ن:.٦٤

[36] - م.ن:.٥٣

[37] -م.ن:.٨٤.

[38] - م.ن:٦٤ – .٦٥

[39] -م.ن:.٨٥

[40] - م.ن:.٨٥

[41] - م.ن:٨٦ -.٨٧

[42] -م.ن:.٦٥

[43] - م.ن:.٥٤

[44] -م.ن:.٦٥

[45] -م.ن:.٥٣

[46] -م.ن:.٥٣

[47] -م.ن:.٦٥.

[48] - م.ن:٥٤ -.٥٥

[49] -م.ن:٨٨ -.٨٩

[50] -الديوان :٥٥ -.٥٦

[٥١]-م.ن:٦٥. [٥٢]-م.ن :٦٥.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أدب الطف أو شعراء الحسين من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر،جواد شبر،دار المرتضى –طبع –نشر- توزيع،بيروت-لبنان،ط١ ،(١٤٠٩ ه-١٩٨٨ م) .
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ،خير الدين الزركلي ،دار العلم للملايين،بيروت-لبنان،ط١٥ ،٢٠٠٢ م .
- أعيان الشيعة، الإمام السيد محسن الأمين، حققه واخرجه وزاد عليه:حسن الأمين،دار التعارف للمطبوعات، بيروت – لبنان ،ط٥ (١٤٢٠ ه – ٢٠٠٠ م) .
- البابليات ، الشيخ محمد علي اليعقوبي ،دار البيان للطباعة والنشر والتوزيع، مطبعة مهر ،قم ، ط٢ ، (د٠ ت) .
- تطور الشعر العربي الحديث في العراق إتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج ،د٠ علي عباس علوان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية،بغداد،١٩٧٥م .
- جدلية الخفاء والتجلي -دراسات بنيوية في الشعر-، كمال ابو ديب ، دار العلم للملايين ،بيروت ،ط٢ ،١٩٨٤ م .
- حركة الشعر في النجف الاشرف وأطواره خلال القرن الرابع عشر الهجري (دراسة نقدية) ،د ٠عبد الصاحب الموسوي، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت – لبنان،ط١،(١٤٠٨ ه – ١٩٨٨ م) .
- الحسين في الشعر المسيحي،سعيد رشيد زميزم،دار الجوادين،لبنان- بيروت،ط١ ،(١٤٣٣ ه-٢٠١٢ م)
- ديوان السيد صادق الفحام الأعرجي(١١٢٤ -١٢٠٥ ه)تحقيق:د.مضر سليمان الحلي،مطبعة فردوس،ط١ منقحة،(١٤٣٤ه-٢٠١٣ م) .
- الرثاء ،شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ،ط٤ ،(د٠ ت) .
- الرثاء بين الذات والآخر ووجهة الزمن في الجاهلية وصدر الإسلام،علي أحمد عبد الرضا،رسالة ماجستير،كلية التربية،جامعة بابل،٢٠٠٧ م .
- الشعر العراقي ،أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر،د٠ يوسف عز الدين،دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٧م .
- شعراء الحلة أو البابليات،علي الخاقاني،دار البيان،بغداد،ط٢ منقحة وفيها زيادات في التراجم والنصوص، (١٣٩٥ ه-١٩٧٥ م) .
- شعراء أهل السنة في العترة سادات أهل الجنة،السيد محمد علي حسين آل مرتضى(١٣٨٥ ه)،دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت-لبنان،ط١ ،(١٤٣٢ ه-٢٠١١ م) .
- صفحات من تاريخ الحلة ،د.مطر حمزة الزبيدي ،ود.يوسف كاظم جغيل الشمري، دار الرضوان للنشر والتوزيع،المملكة الاردنية – عمان، ط١ (١٤٣٤ ه-٢٠١٣ م) .
- طبقات أعلام الشيعة،محمد محسن الشهير بالشيخ أغا بزرك الطهراني،مطبعة القضاء، النجف، (١٣٧٧ ه-١٩٥٨ م) .
- الطفيات المقولة والإجراء النقدي،د٠ علي كاظم المصلاوي،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،بيروت ،ط١ ،(١٤٣٣ ه-٢٠١٢ م) .
- الطليعة من شعراء الشيعة، الشيخ محمد السماوي (ت ١٣٧٠هـ) ،تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار المؤرخ العربي ، بيروت – لبنان ، ط١،(١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م) .
- العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية-تاريخ المرجعية الدينية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين-،الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء(ت ١٣٧٣ ه-١٩٥٤ م)،تحقيق:د٠ جودت القزويني، بيسان للنشر والتوزيع ،بيروت –لبنان ،ط١ ،(١٤١٨ ه-١٩٩٨ م) .
- فلسفة المكان في الشعر العربي –قراءة موضوعاتية جمالية-،د.حبيب مونسي،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ٢٠٠١ م .
- ماضي النجف وحاضرها ، جعفرباقر محبوبة ،دار الاضواء، بيروت -لبنان،ط٢ ،(١٤٠٦ ه-١٩٨٦ م)
- مع علماء النجف الأشرف من سنة(٤٤٨-١٣٠٠هـ)، محمد الغروي،منشورات دار الثقلين ، بيروت – لبنان،ط١ ،(١٤٢٠ ه-١٩٩٩ م) .

- معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء، حجة الاسلام والمسلمين الشيخ محمد حرز الدين ، علق عليه :محمد حسين حرز الدين،منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ،مطبعة الولاية ، قم – إيران ،١٣٥٨ ه .
- المفصَّل في تاريخ النجف، د٠ حسن عيسى الحكيم،المكتبة الحيدرية ،مطبعة شريعت،قم المقدسة،ط١ ،١٤٢٨ ه .